حامل الأثقال

قصة بقلم محمود تيمور

[قصة من ذكريات « لبنان » تحية للصديق « أسامة عانوتي »]

هناك في قرية «شلفون» اللبنانية القابعة على سفح الجبل الاشم، بين الاحراج الفساح، قضيت بضعة ايام في الخان ، التمس راحة الجسد وطمأنينة الروح...

وكنا في مطلع شهر « أكتوبر » ، وقد أدبر عن المصيف من قصد اليه من رواد قليلين ، فبقيت وحدي مع أسرة صاحب « الخان » ، كأني ضيف لهم من ذوي القربى .

والفتُ أن اخرج للنزهة في فترة الاصيل ، اسلك طريق القرية على مدّ الغابات ، ذلك الطريق الذي يصل القرية العالية بالبلدة الساحلية المشرفة على البحر ، فأصوّب فيه بعض ساعة ، ثم أعود ادراجي مصمداً الى المثوى .

ويوماً بلغتُ في مهبطي الموضع الذي جعلته منتهى الشوط ، فمثلت ملياً اجتلي مباهج الطبيعة، وقرص الشمس ينحدر للمغيب ، ناشراً على الأفق صبغة الشفق ، والكون من حولي تشيع فيه سكينة وصفاء .

ولبثت حتى شهدت طلائع الليل تتبدى . ولم يكن على الطريق غيري، لا سائر يبادلني النظر ، ولا سيارة يسمع لها صوت بوق ، او يثور لها من أديم الأرض غبار ...

يا للوحدة ! يا للوحشة ! أحقاً أنا في هذه البقعة وحيد ؟

تلك هي الريح الوادعة تتنسم ، متسللة بين الخمائل ، تسمع لها وسوسة كأنها همسات العشاق .

أيجوز لي في هذه الساعة أن استوحش ؟

ذلك هو الرفيق العلوي الحبيب، هلال الشهر ، يلمح رشيقاً على استحياء ، وعن كثب منه نجم المساء الهيان يرقب مسيره في الفضاء .

أأستشعر الوحدة والوحشة وانا في تلك الساعة الفريدة التي تتجلى فيها عرائس الطبيعة أبهى ما تتجلى ؟!

وشرعت اصعد في الجبل، ماضياً الى القرية العالية، وبين جوانحي طمأنينة وانشراح ، وانا بين الفينة والفينة أرجع البصر الى الهلال الحي ، يتبعه نجم « الزهرة » متوهجاً في وله ، فأحس قلبي يتنازعه شوق وحنين .

وبينا أنا اخطو في الطريق المعبد المألوف ، تراءى لي غير بعيد آدمي يرتقي معي سفح الجبل، ولكنه يتوخى في مرتقاه معاطف الطريق الصغيرة المتغلغلة في الغاب، تلك الطريق التي لا يحسن اقتحامها الا ابناء الجبل، اولئك الذين شبوا يسلكونها ، فرنوا عليها ، وأمنوا في وعورتها العثار .

وكان يبدو لي ذلك الآدمي كأنه خيال اسود ، او شبح مبهم، لا تتميز له ملامح ... تأخذه عيني حيناً في بعض الطريق ، ثم تطويه عني حيناً الفاف الشجر ، وهو يغذ السير في تلك العقبات الصعاب، كأنه يتسور جداراً عالياً في مهارة وحذق .

أقاطع طريق هو ينبو عن العيون ؟ أرياضي هو يهوى التصعيد في مراقي الجبل ؟ ما شأني به ؟

فليكن من أمره ما يكون، ولأواصل سيري متزن الخطو، خالي البال.

بيد أني على الرغم مني ظللت أرقبه في انتباه ، حتى بلغنا رحبة على طرف الطريق الصخري ، قاربت بيني وبينه ، فاستبانت لي معالمه في الضوء الرقراق الذي يرسله الهلال الفتي ...

انه رجل من أهل الجبل ، يرتدي السراويل ، تغطي رأسه عمامة خفيفة، وهو محني القامة ، على ظهره سفط من اسفاط الجمالين يبدو أن فيه ما يثقله، فاختلفت بي الظنون في أمر هذا الحمال الذي يرزح تحت وقره في جنح الليل.

وتابعت السير والحمال يجد في صعوده ، فيخلفني وراءه ، واحسست باعثاً يحدوني على ان الحق به، فأوسعت الخطا، وكأنما هو ادرك ذلك مني، ومضى لطيته ، فكأننا فرسا رهان.. أنا في طريقي المعبد المألوف لا أحيد عنه، وهو في شعاب الجبل الملتوية المتضايقة ، يتوارى عني طوراً ويظهر تارة .

وأخيراً ضمتنا مشارف القرية ، عند ملتقى الطرق ، في وقت معاً ... كلانا يواجه صاحبه ، وكلانا يمسح العرق عن جبينه ، وسرعان ما الفينا انفسنا نتطارح التحية ، ونتبادل الابتسام .

هذا رجل وخطه المشيب، تعلو وجهه الغضون ، ولكنه على غرار ابناء الجبل : متين الأركان ، يفيض محياه لطفاً ومؤانسة ...

وأخرجت علبة اللفائف ، أقدم له لفافة ، وآخذ لنفسي مثلها ، فعجل الى علبة أعواد الثقاب يشعل لفافتي ولفافته ، وهو يهمهم بكلمة الشكر ...

قلت له على الفور :

— لاحظت عليك انك تتجنب الطريق المعبد المألوف ، وتؤثر الطريق الضيق الشاق ...

— انني اختصر المسافة ، وقد الفت هذا الطريق ، فلا مشقة علي فيه ...

واجتذب نفساً مديداً من اللفافة ، وقال وهو ينفث الدخان :

— انت من المصطافين في هذه القرية ؟

— نعم .

— لقد انتهى موسم الاصطياف.

— اني انشد الراحة ، واطلب الخلوة ...

فابتسم ابتسامة عريضة، وقال:

— حقا ما احوج الانسان في بعض الاحيان الى الفرار من خلق الله !

وأقبل على سفطه المشدود الى ظهره ، يعالج ان يحل رباطه ، فدنوت منه اعينه ، فردني في رفق ، وهو يقول :

— هذا عمل لا يكلفني من جهد ... اني ازاوله منذ عشرات السنين .

ووضع عن ظهره السفط ، ومال عليه يستخرج ما حواه ، ويقذف به على الارض ، فاذا هو نفاية احجار لا تصلح لشيء ، فدهشت قائلا :

— اهذه محتويات السفط ؟

— انني حيناً احمل حجراً لا قيمة له، وحيناً أحمل ما له قيمة من البضاعة والمتاع.

ولما افرغ حمله ، استوى في وقفته ، فاذا هو محني القامة ، كشأنه من قبل ، كأن السفط بحمله الثقيل ما برح على ظهره ..

ورأى عيني تتساءلان في فضول ، فاستأنف قوله وهو ينفض الرماد عن اللفافة بين انامله :

— انا حمال يا سيدي كما تشهد ... احترفت ذلك العمل منذ فجر الشباب، اجلب لأهل القرية ما يحتاجون اليه من البلدة الساحلية ، فأصدر عن القرية في الصباح ولا ارجع اليها الا في المساء .

فقلبت النظر في الحجر المتناثر حولي ، وانا اقول :

— اهذا ما طلب اليك اليوم اهل القرية ان تحضره لهم من البلدة الساحلية ؟ افي حاجة هم الى الاحجار ؟!

فنبذ عقب اللفافة من يده ، ووطئه بقدمه ، وهو يجيب :

– انا اليوم في عطلة ...

– وما خطب هذه الاحجار يا صاحبي ؟

– حين لا اجد ما احمله مما ينفع الناس ، أراني مضطراً الى حمل الحجر الذي لا فائدة منه لأحد ...

فارتسمت على وجهي علائم الحيرة والتعجب وصحت :

– اقسم لك اني لم افهم شيئاً مما قلت ...

– الم اقل لك اني اليوم في عطلة... فيا اجازة اجبارية ؟.. أنا متعطل... لم يطلب اليّ احد من اهل القرية ما احمله ، ولذلك لم اجد بداً من ان استبدل بالبضاعة والمتاع احجاراً كما ترى ... وهذا شأني كلما تعطلت عن العمل !

فأسرعت اقول :

– اذا لم يكن لديك ما تحمله ، فلماذا لا تريح نفسك من حمل الاثقال؟

ففغر فاه بقوله :

– هيهات ... يجب ان احمل شيئاً فوق ظهري ، حين اصعد في الجبل. وليس افضل من الحجر ، لأنه ثقيل يفي بالغرض .

فغمغمت :

– ثقيل ... يفي بالغرض ؟!

فتدانى مني يقول هادىء اللهجة :

– قضيت شبابي وكهولتي وانا حمال ، حتى تقوس ظهري من حمل الاثقال ، واصبح كما ترى الآن ... فما انا بمستطيع ان ارفع هامتي واسير مستقيم العود كما يسير الناس ، وظهري يتطلب مني ان احمله ثقلا هو عندي بمثابة صنجة الميزان ، به يتوازن جسدي ، واطمئن في مشيتي ، وبدونه اعيا ، وأكاد على سفح الجبل اتهاوى ... اتجد غرابة فيما اقول ؟

فاجبت في سهوم :

– لا ادري ... انت ابصر بنفسك ، وما دمت قد جربت ذلك وخبرته فلا بد ان الامر صحيح كما تقول!

واستغرقني الصمت هنيهة ، وقد انساقت بي الافكار كل مساق ، ومثل الرجل يزعاني بنظراته ، ثم قال :

– لقد اصبح حملي من مقتضيات حياتي... انه وسيلة من وسائل التوافق والتوازن عندي ، لاغنية لي عنه ، ولا مفر لي منه ...

فحدقت اليه اقول :

– وهل انت راض بحملك ؟

– كيف لا ارضى به وهو يؤدي لي نفعاً اي نفع ؟ لقد ألفته حتى احببته ... وهل يكره المرء ما يفتقر اليه ؟

كان الحمال يتحدث اليّ في رزانة وتوقر ، وعيناه تشعان وميضاً ينبيء عن بصيرة نيرة ، وفطنة صافية . لكأنه فيلسوف أوتي حكمة الدهر ، واستبطن اسرار الوجود ..

لمَ لا يكون ذلك الحمال الساذج في مظهره ، صاحب فلسفة وحكمة ، وهو الذي قضى عمره يبلو الحياة وتبلوه ، في بقعة جبلية طيبة ، ما اجدرها ان تكفل سلامة الفطرة ، ورهافة المشاعر ، وصفاء التفكير ؟

وسايرت صديقي الحمال في خطوات وئيدة ، وانا احد النظر امامي في غواشي الظلمة ، فقد اختفى الهلال الفتي الحي ، تاركاً نجم المساء الخالد ينعي رحيل الكوكب الفتان ... وطفقت الريح تزف ، فكأنما هي انطلقت تبث الكون الرحيب سرها الحبيس !

وتواردت الخواطر في رأسي حافلة باشتات الأخيلة والتصورات ، وما زال سمعي تطن فيه كلمات الحمال الشيخ :

« لقد اصبح حملي من مقتضيات حياتي . انه وسيلة من وسائل التوافق والتوازن عندي ، لاغنية لي عنه ، ولا مفر لي منه ! »

فرأيتني أربت ظهر الرفيق الفيلسوف ، وأنا اقول له :

– لا تحسبن ياصديقي انك وحدك الذي لا يستغنى عن حمله، كل امرىء منا فيه شيء منك . ان من أحمال الحياة وأثقالها ما هو جزء من المرء لا يحول عنه ولا يزول، وانه لخير وسيلة لتوفير التوازن والتوافق عنده ، فنحن نحيا باثقالنا وان كانت ترهقنا ، لأنها سبب من اسباب مـا نطمح اليه من سعادة واطمئنان !

فأنصت الرجل اليّ منطلق الأسارير ، واستأنفت أقول ؟

– لست وحدك الذي تبحث عن الأحجار التي لا نفع فيها ، لكي يتزن بها ظهرك ... كل امرىء اذا عز عليه ان يجد ما يحمله من اعباء حياته ، بحث جاهداً عن شيء يثقل به كاهله، لكي يجاري الحياة، ويكفل التوازن بين طبيعتها وطبيعته !

وأمسكت عن القول ، وقد أصبحت على مقربة من باب « الخان » ثم اقبلت على صاحبي اصافحه وانا اقول :

– شكراً لك ايها الزميل « الانسان » ... لقد اثرت في نفسي فكرة انسانية خالدة ، انت واحد من ابطالها الافذاذ ، فكرة تحياها بشخصك وتعبر عنها بنهج حياتك .

فصافحني الرجل ، وعلى وجهه سيماء الرضا والارتياح ، ولسانه يلهج قائلا:

– طاب ليلك ... أعانك الله على مقتضيات الحياة من اعباء ثقال !

القاهرة — **محمود تيمور**

أحدث منشورات حمد

بيروت — ص . ب ٣٥٦١

٣٠٠	شعر من المهجر	محمد قرم علي	
١٢٥	البورجوازية	ريجين برنو	
١٥٠	كيف نجح هؤلاء	ديل كارنيجي	
٢٥٠	مختارات الادباء من كتاب العرب والشعراء		
١٠٠	الروائع المختارة اول	جبران	
١٠٠	« « ثاني	هوغو	
١٠٠	الانتقام	المنفلوطي	
٢٠٠	نظام الحكم في الاسلام	م. شمس الدين	
١٠٠	طريق الامومة	لبورغاس	
١٢٥	اسرار الحب والزواج	هنري ميللر	
٢٥٠	تحفة الراغب في صحة المتزوج وزواج العازب	لشاكر الخوري	
١٠٠	عذراء العاصي		بكداش
١٠٠	نداء الشاطيء	«	
١٠٠	نساء الليل	«	
١٠٠	اعترافات تائبة	«	
١٢٥	يوميات جسد		بكداش
١٠٠	يوميات عابثة		«
١٠٠	يوميات تائه		«
١٠٠	راقصة المعبد		«
١٠٠	خطايا الغانيات		جركسي
١٠٠	مع الايام		«
١٠٠	هل هذا غرام		شفيق
٤٥٠	رواية كابيتان		زيفاكو
٢٠٠	فارس العرش		«
١٠٠	الوان من الحب		سمير شيخاني
١٠٠	اجمل الاساليب في انشاء المكاتيب		
١٠٠	نوادر جحا وابو نواس		
١٠٠	ترجمان فرنسي عربي		مطول
٧٥	« « «		مختصر
١٠٠	انكليزي عربي		مطول
٥٠	« « «		مختصر
٥٠	ملحمة كربلاء		زجل
٧٥	سلسلة قصص الجيب . روايات بوليسية منوعة ١٣٠ صفحة		

تطلب هذه الكتب بالجملة والمفرق على العنوان اعلاه او بواسطة مكتبة هاشم بيروت